

التخطيط العمراني في مصر القديمة

للككتور محمد أبو المحاسن مفسور

من المعروف أن مظاهر الحضارة المختلفة تنتج عن تفاعل الإنسان وبيئته ، ولذا كان من البديهي أن يخضع المصري القديم - في مختلف نواحي نشاطه - لاتجاهات معينة لم يجد عنها إلا في القليل النادر .

فهر النيل - وهو أهم ظاهرة في حياته - يمتد من الجنوب إلى الشمال في وادي طويل ضيق ينتهي إلى دلتا فسيحة نسبياً قبل أن يصب في البحر المتوسط ، وهكذا نجد أن مصر شملت قسمين مختلفين : الوادي الضيق في الجنوب وهو المعروف بمصر العليا والدلتا الفسيحة في الشمال وهي المعروفة بأسم مصر السفلى وتمتد الصحاري الشرقية والغربية الواسعة مصر بأكملها من الجانبين ولكنها تحف بالوادي الضيق في الجنوب بحيث يمكن للإنسان أن يقف بأحدى قدميه على الأرض المزروعة وبالأخرى على الأرض الصحراوية فالانتقال بينهما هنا فجائي لا تدرج فيه . وتلى الصحاري في هذا القسم شرقاً وغرباً سلاسل من التلال قليلة الارتفاع تمتد بطول الوادي تقريباً وإن كانت في بعض الأحيان تقترب من الوادي بل وتغير عليه بحيث تصبح مشرفة على النهر تماماً - أما في الدلتا فإن الوادي كان متسعاً ولكن كانت المستنقعات الكثيرة تتخلله ولذا كانت الأراضي الزراعية فيها أقل كثيراً مما هي عليه الآن .

وقد جاهد المصري في توصيل مياه النهر وفيضانه إلى كل شبر يمكن استغلاله في الزراعة ، ومع ذلك فإنه كان يخشى خطر الفيضان ويتجنب الإقامة في البقاع التي يكتسحها أي أن الحاجة إلى أقل مساحة من الأرض الطمينة الثينة والرغبة في محاشي مياه الفيضان كانت تنحصر في مواقع المدن ومراكز تجمع السكان حيث نشأت على حافة الصحراء كلما أمكن ذلك -

ومن جهة أخرى كانت بعض الاعتبارات الأخرى (من سياسية وعسكرية ... الخ) مبيهاً في نشأة عدد من المدن في الوادي نفسه بين الأراضي الزراعية . وكان من جراء ارتفاع منسوب الوادي باضطراب أن دفنت عدة مراكز عمران تحت طمي النيل وانتقل العمران إلى أماكن أخرى بينما ظلت مراكز أخرى عامرة بالسكان بصفة دائمة فكانت المنازل الجديدة تبنى على أنقاض القديم منها حتى أصبحت المدن قائمة على تلال مرتفعة ولا بد أن كثيراً من القرى والمدن المصرية الحالية قد بنيت على أنقاض محلات قديمة - وهكذا نجد أن المدن القديمة كانت تواجه دائماً مشكلة القضاء المناسب كي تمتد في مساحتها أو تنتقل خارج حدودها وربما كان التغلب على هذه المشكلة ميسوراً بعض الشيء في مصر العليا حيث يكون التوسع في اتجاه الصحراء أو الهضاب المجاورة أما في الدلتا فإن المستنقعات كانت تجعل مثل هذا الحل متعذراً ولذا نجد النصوص المصرية تشير إلى القرى في مصر العليا بينما هي تشير في الوقت نفسه إلى المدن المرتفعة في مصر السفلى .

ولاشك في أن بقاء مخلفات المدن القديمة والعثور على آثارها كان يحددهما عاملان : طبيعة مواد البناء المستخدمة فيها والظروف الطبيعية للأقليم الذي وجدت فيه ولما كانت نظرة المصري التقليدية إلى المنزل تنحصر في اعتباره مقراً مؤقتاً غير دائم (أما المقر الدائم في نظر المصري فإنه كان مقبرته) ونظراً لأن اللبن كان أرخص وأيسر مثلاً من الحجر فإن منازل الأفراد بل وقصور الملوك كانت تبنى من اللبن وانحصر استعمال الحجر في الأعتاب وأفاريز الأبواب وقواعد الأعمدة أما الخشب فقد اقتصر استعماله على الأبواب والأعمدة والأسقف - ومثل هذه المنازل كانت حياتها محدودة بالطبع ولذا كان لابد من تجديدها بين حين وآخر إذا أنها كانت تتأثر بشدة الأمطار أو لجورد التقادم ، أضف إلى ذلك أن الخشب والحجر كانا نادرين ثمينين فحينما يترك أحد المنازل أو تهجر إحدى المدن ولو مؤقتاً فإن هذه المواد النادرة كانت أول ما ينتزع منها ويعاد استخدامها مما يؤدي إلى الاسراع بانهيار هذه المباني وقد يؤدي استخدام لبن تلك المباني ومخلفاتها

في تسميد الأراضي الزراعية إلى زوالها نهائيا - وهكذا نجد أن معظم المدن المصرية القديمة قد اختضت تحت طمى النيل أودفت تحت المساكن المتعاقبة في نفس المكان أو أزيلت بسبب حصول الأهالي المجاورين لها على مواد مياينها المختلفة ولذا فإنه - باستثناء نماذج قليلة - للحنازل وبعض نقوش المقابر التي تصورها - لا يوجد لدينا من المصادر عن هذه المباني والمدن سوى آثار بعض قرى العمال وأنقاض المدينة التي بناها اخناتون « اخيتاتون » = تل العمارنة الحالية » وعدد من الحصون في مصر والنوبة .

ولا شك في أن أول ما يتبادر إلى ذهن الانسان عندما يحاول اتخاذ مأوى له هو أن يحيط مستقره بسياج بيضاوى أو مستدير من المواد الخفيفة التي في متناول يده أى أن الملجأ الذى اتخذته لم يكن أكثر من كوخ أو حجرة بسيطة من البوص أو الحصب تطل بالطمى في كثير من الأحيان .

وبتقدم الزمن أو تبعاً لمتطلبات البيئة أصبحت بعض هذه الأكواخ تعمق جدرانها في باطن الأرض ففى مرمدة الواقعة في شمال غرب الدلتا وفي العمري القريبة من حلوان عثر على أكواخ كانت تتكون من آبار ضرع عميقة مبطنة بحصر تمتد بين أعمدة رقيقة وتبرز قليلا فوق سطح الأرض وكان الدفن إما تحت أرضية هذه الأكواخ أو في خارجها (بينما كانت الجبانات منفصلة عن مناطق السكنى في مصر العليا) .

وهنا نجد ما يبرر الفكرة المصرية القديمة عن المقبرة إذ أنها تعتبر منزلا أبديا ولذا كان تخطيط المقبرة والسكن واحداً فأقدمها كان مستديراً أو بيضياً ولعل اختراع اللبن في نقادة الثانية هو الذى أدى إلى استقامة جدرانها، وقد عثر على نموذج صغير من هذا العصر ذو سقف مسطح يعلوه في الغالب حائط تصفى وبه أربعة نوافذ موزعة في جدارين متقابلين وكان الباب على جانب من المجرى . (١) .

وتشغل مرمدة مساحة تقدر 600×400 ياردة وقد اصطفقت بعض الأكواخ في أحد أجزائها في صفين يفصلهما شارع ضيق مما يوحي بوجود شيء من التنظيم الاجتماعى ووجود فكرة ولابدائية عن تخطيط المدن -

وقد وجدت كذلك حلة من عصر ما قبل الأسرات المتأخر في المعادى كانت تحتد نحو ميل مما يدل على أن مدن مصر السفلى كانت أكبر من مدن الصعيد .

هذا وقد عثر من عصر ما قبل الأسرات أيضا على آثار مدينة في هيراكونبوليس وإن كانت لم تكتشف جيدا إلا أنها كانت لا تقل عن $\frac{1}{2} \times \frac{1}{4}$ ميل وقد أحيطت بسور من اللبن . ولا يبعد كثيرا عن الصواب إذا ما قلنا بأن أقدم المدن المصرية كانت تحاط بنوع من السياج ثم أصبحت تحاط بسور من اللبن كما يستدل على ذلك من قطعة لأحد النماذج التي عثر عليها في ديوسبوليس وهي تبين رجلين يطلان من فوق حائط منخفض (٢) . كما أن المدن في النقوش كانت تمثل بشكل دائري أو بضاوي يحيطه سور قوى من الواضح أنه كان من اللبن وكثيرا ما كان يزود بـمداخل ومخارج (٣) كذلك كانت العلامة الهيروغليفية الدالة على مدينة نرسم في شكل سور دائري مقسم إلى أربعة أقسام بطريقين متقاطعين .

وإذا جاز لنا أن نستدل من جبال الأهرام على تخطيط مدن الدولة القديمة ونظامها أو على الأقل على الأحياء التي كانت قريبة من البلاط فمن الواضح أنها كانت دقيقة التخطيط إذ أن النبلاء أرادوا عند وفاتهم أن تكون مقابرهم بالقرب من المقر الأخير لسيدهم لأنهم إنما رغبوا في أن تكون حياتهم الآخرة شبيهة بحياتهم الدنيا حيث كانوا يعيشون بالقرب من القصر ويبدو هذا بوضوح في منطقة الجيزة حيث توجد مدن للموتى بالفعل حول الأهرام ، إذ نجد الهرم قائما ومن حوله تصطف مصاطب النبلاء في صفوف منتظمة تخترقها شوارع طولية وعرضية (٤) . وهي في شكلها الخارجي أشبه بالمنازل وتفاوتت في مظهرها حسب رتبة أصحابها . أي أنه من العسير أن نتجنب استنتاج أن مدن الأهرام تعكس إلى درجة كبيرة مظهر العاصمة أو الجزء المجاور للقصر الملكي وإن كان من المرجح أن تخطيط مدن الأهرام يجعل مثل هذه المدينة مثالية في ترتيبها ونظامها الدقيق - ومن مقابر الأسرة الثانية وبعض آثار نادرة لماكن حقيرة صغيرة من

عهد الأسرة الثالثة يمكن أن نتبين أن منازل الدولة القديمة على العموم كانت تختلف في عدد حجراتها على حسب مكانة أصحابها ومنها ما كان يحتوي على دورات للمياه وحمام . كما نتبين من نقوش بعض المقابر المتأخرة أن طائفة من المنازل كانت تشغل مساحات واسعة وبها عدد من المكاتب والمخازن ومزودة ببوائك مستعرضة وحجرات ذات أعمدة أى أن أصحابها كانوا من ذوى المراكز المرموقة .

ولابد أن المدن كانت تتخذ شكلا عاما منذ عصور سحيقة . ولكن دوام التطور داخل الإطار العام للمدينة لم يخضع لرقابة دقيقة بل كثيراً ما كان يتم كيفما اتفق ومهما وضع من تخطيط للمدينة فإن مرور الزمن كان كفيلا بالتخلي عن هذا التخطيط ولم يشذ عن ذلك إلا المدن التى كانت تبني بواسطة الحكومة . ولتحقيق غرض معين مثل قرى العمال والقلاع والعواصم الجديدة كالعاصمة التى بناها اخناتون :

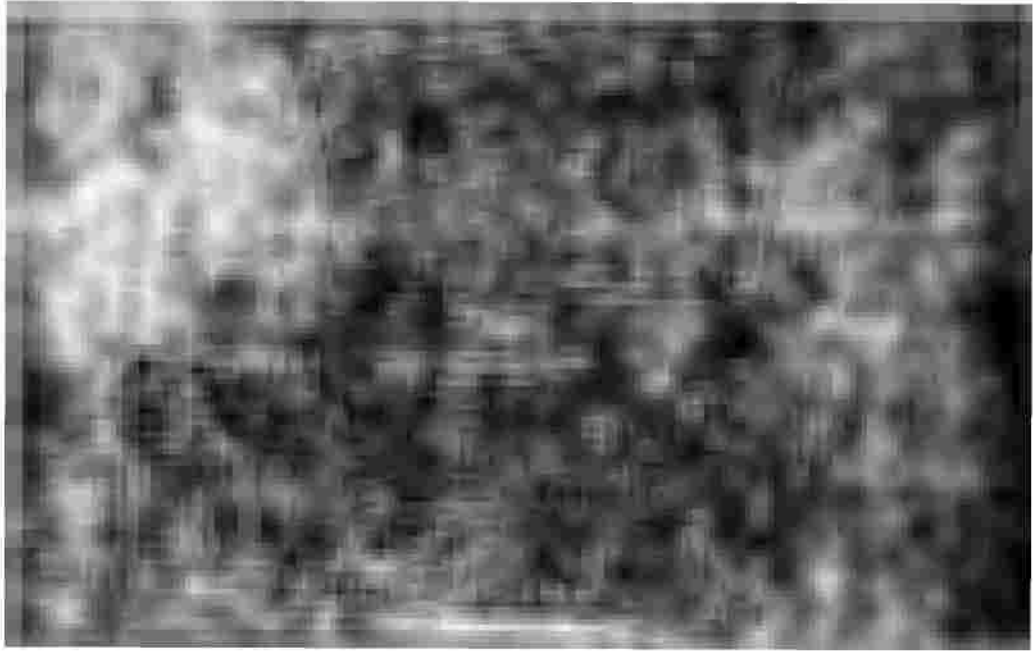
ومع أن قرى العمال تلقى بعض الضوء على تخطيط المدن إلا أنها كانت تبني لسد الحاجة إلى إسكان الرجال اللازمين للمشروعات الضخمة وضمان الاشراف عليها وكثيراً ما كانت منعزلة عن بقية العالم — ونظراً لأنها كانت تبني بصفة رسمية ولتحقيق غرض معين فإن الاتجاه السائد في تخطيطها كان يجعلها هندسية الشكل — وأقدم أمثلة لهذا النوع من القرى يوجد حول هرم خضوع في الجيزة . وهى أشبه بسلسلة من التكتات منها بالمدينة . إذ عثر على نحو ١١١ حجرة طويلة خالية تماماً من أى جهاز أو أثاث وكل منها تسع لنحو ٥٠ رجلاً . (٥)

ومع أنه لم يتم الكشف عن كل أجزاء قرية العمال في كاهون التى شيدت عند بناء هرم ستوسرت الثانى في الدولة الوسطى والأسرة الثانية عشر» فإن الجزء الذى تم الكشف عنه يبين أن هذه المدينة كانت موزعة بسور مربع وكانت تنقسم إلى قسمين غير متساويين أكبرهما يتألف من مساكن كبار الموظفين إذ وجدت ٩ أو ١٠ منازل كبيرة في شمال المدينة كما وجد

بناء ضخم في ركنها الشمالى الغربى يحتمل أنه كان قصر المحافظ . كما يحتوى هذا القسم أيضا على منازل متواضعة لصغار الموظفين - أما القسم الأصغر من المدينة فيحتوى على مساكن للعمال وهذه كانت صغيرة متراصة كل اثنين منها يتصلان في الخلف وبهذا القسم ١١ شارعاً على الأقل أما المنازل الكبيرة التى من القسم الأول فعقدة التخطيط ينقسم كل منها إلى أربعة أقسام : (أ) مسكن أصحاب الدار ويمكن الوصول إليه عن طريق فناء مكشوف وهو يتجه نحو الشمال (ب) حجرات الحريم (ج) ملحقات الخدم والمطبخ (د) سلسلة كبيرة من الدواوين والمخازن . كذلك كانت توجد حجرة للضيوف أحيانا . وأحد هذه المنازل الكبيرة كان يشغل مساحة تعادل المساحة التى يحتلها ٢٥ منزلاً من منازل العمال .

وقد ألحقت بعاصمة اختاتون «تل العمارة» قرية للعمال (٦) مثل قرية كاهون وهى تنقسم إلى قسمين متساويين أيضا ولكنها تختلف عنها في أن هذا التقسيم لم يقصد به فصل الطبقات إذ أن كل المنازل متشابهة فيما عدا منزل قائد المدينة في الركن الجنوبي الغربى وبالقرية خمسة شوارع تمتد من الشمال إلى الجنوب . وفي القسم الأصغر توجد كلها على الشارع الوحيد ولكنها مع ذلك لم تكن متقابلة حتى لا يرى سكان أحد المنازل ما في داخل المنزل المقابل على الشارع . أما منازل القسم الأكبر فتظل كلها على الغرب ولكل منها أربعة حجرات وصالة خارجية . وحجرة داخلية بها عمود . وفي خلف المنزل توجد حجرة النوم والمطبخ الذى تخرج منه سلالم تؤدي إلى السطح وبعض المنازل كانت تحتوى على أماكن لحفظ الماشية مما يوحى بأن المكان كانوا يحتفظون بحيواناتهم داخل منازلهم - على أن يلاحظ بأنه لم يكن هناك مورد ماء داخل أى أن المياه كانت تجلب إلى هذه المساكن من النهر من بعد بضعة أميال - ورغم أن هذه المنازل كانت أحسن من منازل الأحياء الفقيرة في العاصمة إلا أن سكانها كانوا منزولين

تماما ويجرسون في الليل مما يدل على أنهم كانوا من عمال السخرة أو من
الموضوعين تحت الرقابة .



شكل (١)

قرية دير المدينة

(أ) كاتيلو في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر

(ب) كاتيلو في عهد الأسرتين التاسعة عشر والعشرين نقلا عن كتاب :

Bruyère, Fouilles de Deir el Medineh, Pls.VI & VII.

وأغرب قرى العمال في مصر كلها قرية دير المدينة (شكل ١) على الضفة
الغربية للأقصر وهي تقع في وادي منعزل جذب محصور بين قرنة مرعى
والتلال المتطرفة جنوب هضبة طيبة وقد ظلت مسكونة بصيغة دائمة نحو
٤٠٠ سنة وكان تشييدها من أجل إسكان الرجال الذين كانوا يعملون
في بناء المقابر الملكية ونظراً لبعدها عن مكان العمل فإنه كان من عادة أهلها
ألا يعودوا يوماً إلى منازلهم ولذا قاموا ببناء أكواخ من الحجر الغشيم
في الطريق المشرف على وادي الملوك يقضون فيها معظم أوقاتهم - ومع

هذا فأن القرية الأصلية كانت محاطة بسور مشيد من اللبن ويحترقها شارع وحيد ضيق على إمتداد الممر المؤدى إلى الوادى وكانت المنازل طويلة ضيقة تفتح على الشارع - وقد اتسعت هذه القرية فامتد سورها بعض الشيء بل وشيدت بعض المنازل خارج هذا السور أيضاً ولم يصبح هذا السور للدفاع أو الرقابة بل يبدو أنه أصبح لفصل الطبقات التى تألف منها السكان فكان الأرستقراطيون يسكنون فى داخلها أما فى خارج السور فكان يسكن من هم دون ذلك ولا يحتفظ بالحيوانات فى المنازل التى داخل السور أما تلك التى فى الخارج فكانت تحتفظ بحيواناتها - ويتصل منازل هذه القرية بعضها ببعض وكانت طويلة ضيقة لا يضيئها سوى باب الشارع ومنازل التهوية فى السقف ويتألف المنزل عادة من صالة خارجية وحجرة داخلية بها أعمدة فيها ايوان « متكأ » ومن حجرة نوم ومطبخ غير مسقوف به سلالم تؤدى إلى السطح ولم يكن هناك أى مورد فى القرية بل كان هناك خزان خارج البوابة الخارجية تكلف فئة خاصة بجلب الماء على ظهور الحمير ملثة ويحرسه حرس خاص وكانت النساء تحصل على مياهها منه حيث تحفظها فى أواني كبيرة عند مداخل مساكنهن ومع أن القرية ظلت عامرة نحو ٤٠٠ سنة إلا أن مستوى أرضها لم يرتفع مما يدل على أن المنازل كان يعاد بناؤها على نفس أساسها السابق ولذا نستنتج وجود نوع من التنظيم والرقابة على البناء والتخطيط كذلك تشير نصوص قطعيتين من اللخائف إلى أن اختيار المسكن لم يكن ليتم بحرية تامة وكانت هناك دورات تفتيشية على القرية كما حصر حفر المقابر فى الهضبة التى تقع فى غربها وشيدت المقاصير فى شمالها كما وجدت مراكز لبوليس فى كلتا نهايتها .

كذلك تختلف مدينة اخناتون التى بناها واتخذها عاصمة جديدة له عن بقية المدن المصرية فى أنها بنيت دفعة واحدة وفق تخطيط موضوع مدروس إذ أنه حينما وجد معارضة شديدة فى طيبة للذين الذى نادى به اختار موقعا بكرة أسس فيه هذه المدينة الجديدة وسماها أخيتاتون . وقد انتقل إليها فيما بين السنة الخامسة والسادسة من حكمه حيث قضى بها بقية حكمه الذى بلغ سبعة عشرة عاماً وبعد فترة تراوح بين سنتين وأربعة

من وفاته هجرت هذه المدينة نهائياً مما أدى إلى بقاء كثير من آثارها - وهذه المدينة بنيت على الضفة الشرقية للنيل في منطقة تتراجع فيها الهضبة الشرقية بحيث تترك بينها وبين النهر منخفضاً في شكل نصف دائري أقصى طول له ٧ أميال بينما يراوح أكثر عرض له بين ميلين وثلاثة أميال وتقترب الهضبة في الشمال والجنوب من حافة النهر بحيث تصبح المدينة مقفلة تماماً (شكل ٢) وهذا يفسر سبب عدم وجود سور للمدينة . وكانت المقابر تنحت في صخور سلاسل تمتد شمال وجنوب أحد الوديان الجافة وهو يمتد على بعد بضعة أميال من النهر - وتحترق المدينة ثلاثة طرق من الجنوب إلى الشمال تكاد تكون موازية لاتجاه النهر وقد سميت هذه الطرق بأسماء أطلقها عليها المكتشفون فأقربها إلى النهر عرف باسم الطريق الملكي يليه إلى الشرق شارع الكاهن الأعظم ثم يلي ذلك أيضاً الطريق الشرق .



شكل (٢)
موقع تل العمارنة

وفى بين الطريق الملكى والنهر بنى عدد من القصور والمنشآت الحكومية
هى من الجنوب إلى الشمال : استراحة ملكية «مارو آتّان» يليها شمالا معبد
النهر ثم المقر الرسمى للفرعون ثم القصر الشمالى الذى أُلحقت به حديقة
الحيون وبلى ذلك قصر آخر ومن المحتمل أن مبانى رسمية أخرى بنيت
على امتداد النهر ولكنها اختفت تحت الأرض المزروعة حالياً .

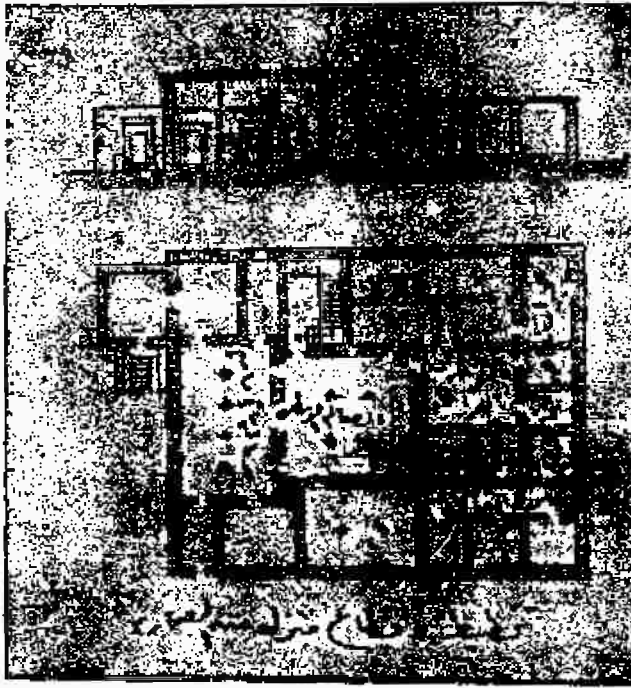
وقد قسمت المدينة إلى قطاعات واضحة . ففى الجنوب يقع القطاع
الجنوبى الذى يقسمه وادى غير عميق . ومن المحتمل أنه تطور فى الوقت
الذى هجرت فيه العاصمة مع أنه كان مقر كبار الموظفين ورجال الحاشية
إذ وجد فيه منزل الوزير ومنازل بعض الشخصيات الهامة ولم يحل الأمر
بالطبع من وجود منازل أخرى وضيقة كما يبدو أن مركزاً صناعياً كان
قائماً به إذ أن مصنع النبال الذى وجدت به رأس نفرتيتى الشهيرة كان
فى شمال الوادى وإلى الشمال منه أيضاً وجد مصنع للزجاج (بالقرب من
القصر الملكى) وفى شمال هذا القطاع الجنوبى يقع الحى الأوسط من المدينة
وفيه يوجد القصر الملكى والمعبد ومكاتب الحكومة ، وقد خطط هذا الحى
بدقة تامة وعن قصد كوحدة متصلة وتشير إليه النصوص باسم خاص «آتون
مميز فى الأعياد» كما كان يعرف كذلك باسم «الجزيرة» وكان حده الغربى
ينتهى بالمقر الرسمى للفرعون الذى كان يطل على الطريق الملكى وقد ضاع
أكثر من نصف هذا القصر تحت الأرض المزروعة الآن - ويتسع
الطريق الملكى فى هذه البقعة إلى درجة تسمح بابرازأبهة المركب الملكى
وتجمل فى الامكان ظهور كافة المشتركين فيه . أما الحد الشمالى لهذا الحى
فيكونه المعبد العظيم المقام داخل سور يشغل مساحة قدرها ٢٥٠٨٠٠
ياردة - وفى مواجهة الطرف الجنوبى للقصر توجد المخصصات الملكية التى
تألف من المقصورة الملكية والقصر الخاص الذى يسكنه الملك وحديقة
ومخازن وبلى ذلك جنوباً مجموعة من المخازن والحجرات المخصصة للكهنة
الملحقين بالقصور الملكية . وتتصل هذه الأجزاء بالقصر عن طريق قنطرة
من ثلاثة أقسام تعلو الطريق الملكى و القسم الأوسط منها به حجرة صغيرة
يشرف منها الملك على رعاياه ويمنح المكافآت إلى المخلصين من حاشيته -

وفيا بين المخصصات الملكية والمعبد الكبير توجد مجموعتان متميزتان من المخازن والحجرات المخصصة لأعداد الطعام يبدو أن الجزئية منها كانت خاصة بالقصر بينما كانت الشمالية مخصصة للمعبد .

وتقع دواوين الحكومة إلى شرق هذه المباني ومعظمها لم يمكن التعرف على المصالح التي كانت تشغلها ولكن أمكن معرفة بعض المصالح الأخرى من النقرش ومن هذه ديوان السجلات أو ديوان الخارجية حيث وجدت خطابات تل العمارنة الشهيرة وهي عبارة عن المراسلات الدبلوماسية التي تبودلت في ذلك الوقت . ومن خلف ديوان السجلات يقع « منزل الحياة » الذي أطلق عليه المكتشفون « اسم الجامعة » ولكنه في واقع الأمر كان بناء مزدوجاً يتألف من مدرسة ودار للنسخ . وإلى شرق هذا الأخير توجد مجموعة من المباني ربما كانت ديواناً للأشغال يتألف من أقسام خصص كل منها لنوع معين من مصالح الحكومة . وإلى جنوب تلك الأبنية توجد صفوف طويلة من الحجرات والدواوين لا شك في أنها كانت للكتابة والموظفين — وأخيراً وعند حافة الصحراء في شرق كل تلك المباني توجد الثكنات العسكرية وأقسام البوليس التي زودت بصفوف طويلة من الاصطبلات وزعت بحيث يمكن للفرسان أن يسرعوا منها — عن طريق الصحراء المنبسطة — مناطق الخطر ، وعلى بعد نحو ٨٠٠ ياردة من هذا الحى الأوسط يوجد جزء عرف باسم الضاحية ويقسم وادى مماثل للوادي الذي يخترق القطاع الجنوبي — وهذه الضاحية تحتوي على منازل قليلة ضيقة ولذا يظن أنها منازل للطبقة الوسطى وأن المركز التجاري كان في هذا الحى ولا يعد أن تكون أرصفة الميناء النهرية قد بنيت في مواجهة الوادي الذي يخترق هذا المكان وفضلاً عن ذلك فقد وجدت بقعتان رديتان من المنازل الشعبية لا تزيد كثيراً عن أكواخ متزاحمة — ويبدو أن هذه الضاحية بدأت في الانتعاش منذ حوالى منتصف حكم الختاتون وتطورت عندما هجرت العمارنة .

وهذا القسم الشمالى من مدينة الخناون كان ينتهى فى طرفه الشمالى باقتراب الهضبة إلى التهر حيث وجد بناء مدرج مشرف يرجح أنه كان للجemark أو للحراسة ومن المحتمل أن بناء مماثلاً كان يوجد فى أقصى جنوب المدينة أيضاً - وقد وزعت المباني فى هذه الضاحية بحيث كانت المباني الكبيرة جداً قريبة من القصر وهى أقرب لأن تكون دواوين الحكومة منها إلى المنازل .

ومع أن الطرق الثلاثة الرئيسية قد حددت الشكل العام للمدينة إلا أن عدداً من الشوارع الجانبية كان يخترق المدينة كذلك وهذه كانت غالباً متعامدة مع الشوارع الرئيسية . ولم تكن هذه الشوارع مرصوفة أو مبلطة بل اكتفى بتسويتها حيث أزيلت الصخور البارزة ونظفت من الحصى ولم يوجد نظام للتصريف مما يوحى بأن النظام الصحى كان بسيطاً وأن



شكل (٢)
تخطيط وتقاطع منزل من الدارنة

مياه الحمامات كانت تصرف في باطن الأرض أما المخلفات والبقايا فقد أُلقيت في آبار أو كانت تكوم فيها وراء المنازل وكلما تراكت سويت هذه الأكوام أو ملئت بها الآبار أو أحرقت - وكان يبنى من فوقها عند ازدياد المدينة في الحجم - ولم توجد عمارات مرتفعة أو مجمعات ويبدو أن أغنى الناس اختاروا مواقع منازلهم على امتداد الشوارع الرئيسية . أما الأقل ثراء فقد بنوا في الأماكن الحالية خلف منازل الطائفة الأولى بينما حشرت منازل الفقراء في الأماكن الملائمة التي أمكن الحصول عليها مع محاولة سيرة للمحافظة على النظام وهكذا وجدت كل طرز المباني في كافة الأحياء ولم يشذ عن ذلك إلا الحي الأوسط من المدينة .



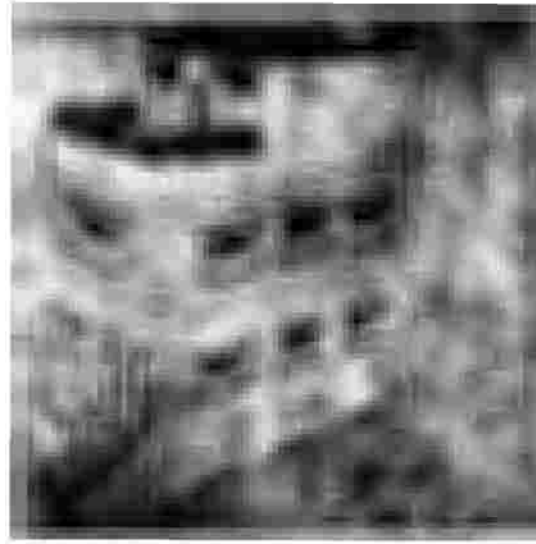
شكل (٤)

مرفج لمنزل من المارة

وقد أمكن استنتاج نظام المنزل المعتاد للإشراف بصفة عامة (أنظر شكل ٣ ، ٤) فهو عبارة عن منزل جيد التخطيط من طابق واحد يشغل مساحة مربعة على العموم ويتجه دخوله الشمال أو الغرب والبناء الرئيسي في المنزل يشغله صاحب الدار وعائلته أما المطبخ وحجرات الخدم والاصطبلات .. الخ فتوضع في العادة تحت الريح أي نحو الجنوب أو الشرق . ويتلخص

المبنى الرئيسي في حجرة فسيحة مربعة بها عمودين أو أربعة ويرتفع سقفها عن بقية المنزل ويستغل الفارق بين السقفين في نوافذ للاضاءة ويؤدى إلى هذه الصالة صالة أخرى ذات أعمدة تنحى إلى شمالها أو غربها وتوجد أمامها ردهة أمامية تفصلها عن الروابة التى يؤدى إليها درج بسيط - وخلف الحجرة الوسطى توجد صالة داخلية تعرف باسم حجرة النساء وتلى هذه حجرات العائلة والجناح المخصص لسيد الدار وكان يحتوى على حجرة للنوم وحمام ودورة للمياه . وكثيراً ما كانت توجد حجرات مستقلة يبدو أنها كانت للضيوف وفى أعلى سطح المنزل توجد شرفة جيدة التهوية فى الجهة الشمالية أو الغربية ومحيط بالمنزل وأقنيتة سور من اللبن وكثيراً ما كان يزود بحديقة زرعت أشجارها فى حفر ملئت بطمي النيل كما أن بعض المنازل كانت تحتوى على بركة صناعية ومقصورة خاصة للعبادة ومساكن للخدم ومخازن وبئر وصوامع للغلال فضلاً عن المطبخ والاصطبلات .

ومع أن العمارنة كانت تتميز بطابع فريد دون شك إلا أنها كانت فى مساكنها متمشية مع التقاليد إذ وجدت نماذج قليلة لمنازل فى مصر والسودان لها نفس الطابع العام وهنا يجب أن نذكر بأن العمارنة بنيت فى أرض صحراوية بكر أى أن المساحة الكافية لامتداد مبانيها واتساعها كانت مكفولة وهذا يغير الحال فى مدينة ومنف مثلاً لأن هذه المدن المكتظة لم تكن مساكن الطابق الواحد عملية فيها ولذا استعاض الأغنياء عن امتداد منازلهم فى المساحة بجعلها من بضعة طوابق ، ومع هذا فإن الوحدات التى كان يتألف منها منزل العمارنة والتى وزعت على مساحة شاسعة كانت ممثلة فى منازل المدن الأخرى ولكنها هنا كانت بعضها فوق بعض (أنظر شكل ٥) فالمطابخ وملحقات الخدم والمكاتب فى الطابق الأرضى . أما الطوابق العليا فكانت لأهل البيت وعلى السطح توجد صوامع غلال صغيرة وبعض المخازن وقد وجد نقش فى مقبرة بطيبة يبين مثل هذا المنزل - ولم يكن هذا الطراز من المنازل مستحدثاً من عهد الدولة



شكل (٥)

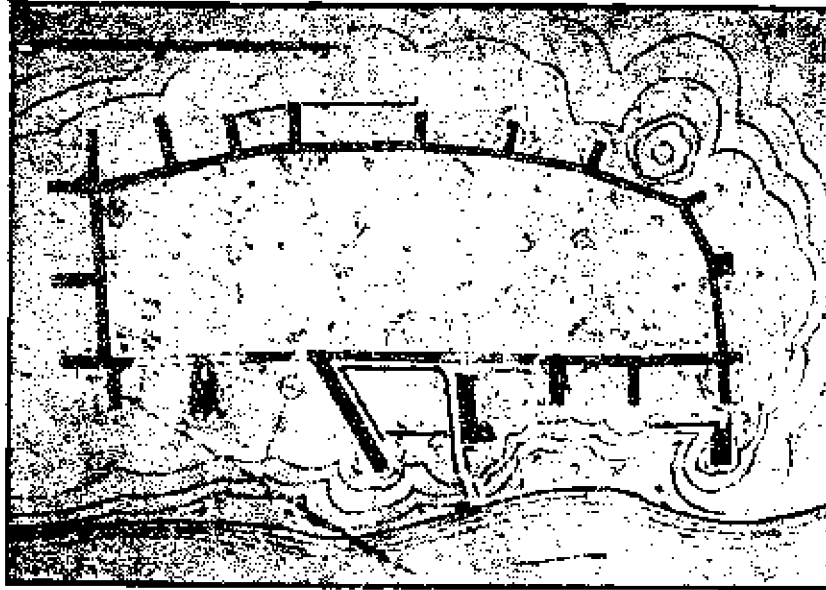
نموذج لمنزل من ثلاثة طوابق مأخوذ من : Revue d'Egyptologie III, fig. 3

الحديثة ولكن يبدو أنه كان شائعاً منذ عهد الدولة الوسطى على الأقل حيث وجد نموذج لمنزل من ثلاثة طوابق في أحد مقابر الأسرة الثانية عشر لنيل في البرشة كما أن النماذج الأخرى «ومنازل الروح» التي وجدت من هذا العصر تدل على أن المدن في عصر الدولة الوسطى كانت تختلف في طرازها : من مأوى بدائي إلى منزل ذو طابق واحد إلى منزل متعدد الطوابق كلها وجدت جنباً إلى جنب بل وهناك من الدلائل ما يشير إلى وجود نظام المباني المجمع والمساكن المشتركة حينما ازداد عدد السكان .

وما دامت الحالة في هذه المدن على هذا النحو من التنظيم فلا بد وأنه كان هناك إشراف من نوع ما على مرافق المدينة وإن كنا لا نملك دليلاً كافياً على وجود رقابة على المباني وتقسيم المدن إلى قطاعات بل ولا توجد إشارة في النصوص إلى الخدمات المرفقية التي نعهدا في العصر الحديث ولكن لابد وأنه كانت هناك طوائف من جامعي القمامة وحمل المياه وغيرهم — ومن المؤكد أن بعض المنازعات قد نشأت بين طوائف الملاك حول

تشريعات المباني وبدلنا على ذلك ما وجد من نصوص ديموطيقية متأخرة (٧) تتعلق بالإسكان وهي عبارة عن عقود قانونية بين الأفراد وإن كانت لا تشير إلى مواد تشريعية ولكن المهم أنها تشير إلى «الجدار المشترك» أو «حائط الجماعة» كما تشير إلى منافذ الضوء التي لا يجب على الجار اغلاقها عند البناء ففي بردية بالمتحف البريطاني اتفاق بين امرأة ورجل مبيع فيها الرجل بأن تبنى السيدة منزلاً يستند إلى جدار منزله الغربي وفي مقابل ذلك تحافظ على نوافذ الاضاءة المظنة على منزلها ولا تتعرض لهدمها بالبناء وهذه الاشارة وأن كانت لا تشير إلى أى تشريع عن البناء ولكن من غير المحتمل أن القراعنة قد أهملوا هذه الناحية .

وآخر مصدر لمعلوماتنا عن تخطيط المدن يمكن أن نستمد من التلاصق المصرية وهناك من الدلائل ما يفيد بأنها عرفت منذ أقدم العصور فاكشافات «يونكر» في كوبانية لا تدع مجالاً في أن الإيفانتين كانت مركزاً تجارياً وحصناً أمامياً (٨) في نفس الوقت منذ عهد باكورة الأسرات وقد قام



شكل (٦)

تلة السنية مأخوذة عن كتاب : Borchardt, Altg. Festungen, DL. 6.

بتحصينها كذلك حوٲى آخر ملوك الأسرة الثالثة (٩) - ولم يكن أقدم الحصون منتظم الشكل بالضرورة إذ أن هذه الحصون كانت تشيد فى مواقع ذات أهمية عسكرية ولذا كان لابد أن تتخذ شكلاً يتمشى مع هيئة الأرض التى بنيت عليها وأشهر هذه الحصون والقلاع تلك التى بناها ملوك الدولة الوسطى فى النوبة وبعض القلاع التى بناها ملوك الدولة الحديثة وإن كانت هذه قد فقدت أهميتها بعد أن أصبح الأمن مستنداً فى ربوع تلك البلاد .

وكانت كل قلعة أشبه بمدينة حصينة إذ كانت تحتوى على معابد وتشغلها عدة مباني تقوم فيها مصالح ودواوين مختلفة وبها عدد من المنازل وتحترقها بعض الشوارع - وقد قامت قلاع النوبة بدور مزدوج إذ أنها كانت تستخدم فى أغراض الدفاع من جهة وكراكز تجارية من جهة أخرى - ويمكن تمييز بين نوعين من القلاع : أحدهما هو ذلك الذى بنى فى الأراضى المنبسطة أو فى الوادى بالقرب من النهر وخاصة فى النوبة السفلى فيما بين الشلال



شكل (٧)

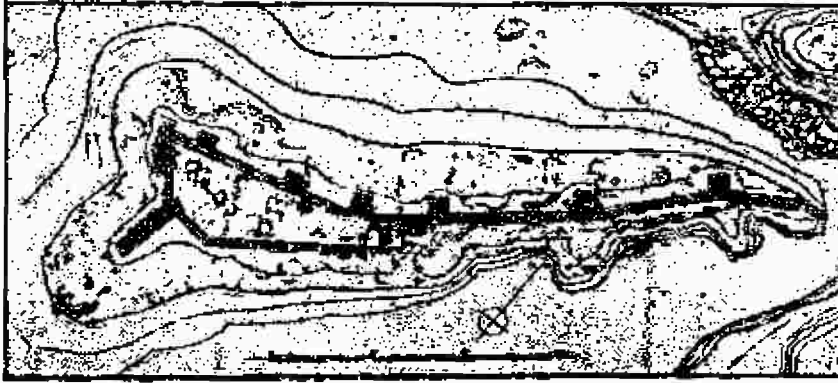
منظر جوى لموقع قلعة أوردونارق من مجلة Kush العدد ٣ لسنة ١٩٨٤

ووادى حلقا وهذا النوع كان ذو شكل مستطيل على العموم ضلعاه الطوليان موازيان للنهر وهو مزود بالكثير من الأبراج في الضلع المواجه للصحراء . أنظر مثلا قلعة الدبة (شكل ٦) - أما الطراز الثاني فيوجد في اقليم الشلال الثاني بصفة خاصة وهو مشيد إما فوق هضاب صخرية تشرف على النهر أو في جزر تعترض الجرى وهذا النوع وإن كان يميل إلى الاستطالة إلا أن شكله غير المنتظم كانت تحدده طبيعة الأرض المقام عليها ولم تكن أبراجه على مسافات منتظمة بل توضع وفق الاحتياجات العسكرية والدفاعية

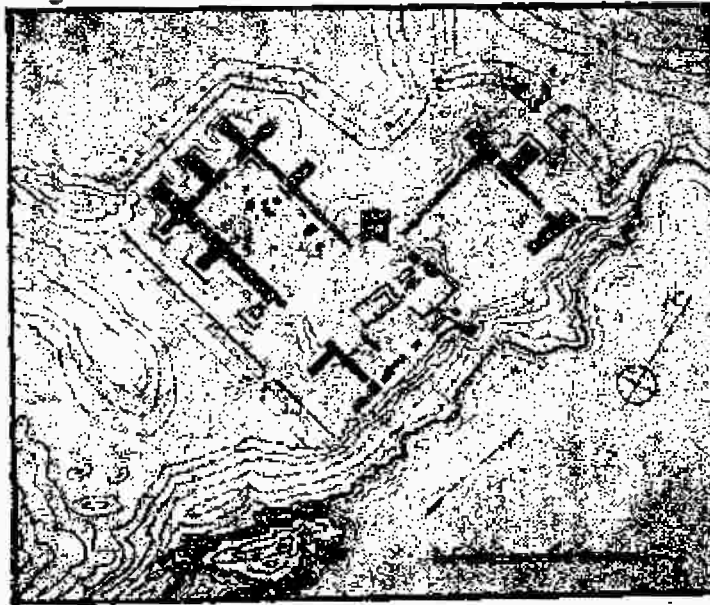
ومن القلاع الغربية في هذا الاقليم ما يتميز بجناح بارز طويل هو عبارة عن جدار قوى من اللبن يمتد من صميم القلعة في موازاة النهر وربما كان ذلك لتسهيل تطويق المهاجمين (أنظر الأشكال ٨، ٧، ٩) .

وأهم عناصر الدفاع في قلاع النوع الأول (قلاع الوادى) تنحصر في ميل سورها الداخلى ووجود خندق جاف حوله وحائط خارجي منخفض تعلوه أبراج - أما قلاع النوع الثانى (قلاع الهضاب أو الجزر) فإن موقعها يجعل من المستحيل إحاطتها بخندق وهى تستغنى بمركزها المشرف على ماجاورها عن هذا العنصر لأن المهاجمين يكونون مكشوفين لساكنها . كذلك كانت هذه القلاع ذات سور واحد في الغالب ولم يكن بها مورد ماء داخلى أو بئر وإنما كان يحصل على الماء عن طريق ممر منحدر إلى النهر طرفه السفلى تحت مستوى الماء حتى في وقت انخفاض النيل وكان هذا الممر مسقوفاً بأحجار مسطحة تحفى على العيون وهكذا كان يمكن للحراس أن يحصلوا على الماء في كل وقت .

ومن توزيع هذه القلاع تبين أن ثمانية على الأقل كانت قائمة بين سبعة ووادى حلقا وهى مسافة لا تتجاوز ٦٠ كيلو متراً وهذا يبين أهمية المنطقة لأن الملاحه في هذا الجزء من النيل متعذرة بسبب كثرة الجنادل وتصلح المنطقة الواقعة فيها هذه القلاع لبعض العمليات الخفية ولذا فإن بعض القلاع في هذا الاقليم كانت على مرمى البصر من القلاع المجاورة وعلى ذلك فإن الحاجة للاحتفاظ بعدد كبير من الجنود في كل قلعة كانت معدومة إذ أن جنود



شكل (٨)
منظر لقلعة أورانق من كتاب بورخاردت السابق لوحة ١٣



شكل (٩)
قلعة صنة مأنوعة من كتاب بورخاردت السابق لوحة (٩)

كل منها كانوا يساندون جنود القلاع الأخرى - وبما أن قلاع الوديان قد شيدت في الأماكن المزدحمة بالسكان لحماية المرور في النهر وحماية قوافل التجارة فإن بعض هذه القلاع كانت تأوى إليه أو تقيم بالقرب منه قوافل التجار عند اضطرارها لقضاء الليل في المنطقة ومن أهم قلاع هذا النوع قلعة أكور وكوبان حيث شيدتا عند مدخل وادي علاقي الذي كان يستخرج منه الذهب .

ولا بد من أن نلاحظ بأن الاتجاه العام في كل هذه القلاع كان يميل إلى ترك مسافة كافية بين المنازل والمباني من جهة وبين السور من جهة أخرى حتى يتاح للجنود أن يقوموا بعملياتهم العسكرية في حرية وسرعة وكفاية .

ولا شك في أنه كان على الدولة الحديثة وخاصة في فترتها الأولى أن يبنوا قلاعاً جديدة في المنطقة التي بعد الشلال الثاني على الأقل وأن يصلحوا أو يضيفوا إلى القلاع القديمة ولكن منذ منتصف الأسرة الثالثة عشر فقدت تلك القلاع قيمتها لهدوء الأحوال في النوبة ودليلنا على ذلك أن المعابد كانت في بادئ الأمر تبنى بالقرب منها أو في داخل أسوارها لحماية ثروتها ولكنها أصبحت بعد ذلك تبنى بعيدة عنها - وبينما كانت قلاع الدولة الوسطى تشيد في مناطق عسكرية فإن قلاع الدولة الحديثة بنيت في سهول منبسطة لا تتحكم في أى طريق نهري أو برى ولا توجد في مناطق موارد عملية غنية كما أن أبراجها وأسوارها لم تكن ملائمة للأغراض العسكرية بل كان يكتفى بمظهرها الجميل ونظامها ولا يوجد لها أى خندق أو جدار دفاعي عند قاعدة السور وليس لها منفذ للماء أو مورد مياه داخلي وبالطبع لم تكن مثل هذه القلاع لتخدم أغراضاً عسكرية أى أنها لم تكن قلاعاً بالمعنى الصحيح .

وما دنا بصدد الحديث عن قلاع النوبة ومدنها الحصينة فلا بد من أن نشير هنا إلى ما يعرف لدى الأثريين باسم حصن كرما التجاري وهو ذو نظام فريد إذ أنه يتميز عن الحصون التي ناقشناها بأنه مشيد في سهل منبسط يبعد عن النهر بنحو كيلو مترين ويعرف محلياً باسم الدقوفة الغربية - ونظراً

لأنه شيد في بقعة غير ملائمة بالنسبة للمصرى في عصر بنائه فإن الآثار الباقية منه تدل على أنه عبارة عن محاكاة مقصودة وصناعية لطراز قلاع الهضاب المعروفة في منطقة الشلال الثاني حيث أمكن الوصول إلى ذلك عن طريق بناء من اللبن يرتفع نحو ١٩ متراً توجد فوقه المساكن (لم يبق منه إلا الأجزاء السفلى فقط) وقد أحيط كل هذا البناء بمائط ضخمة منخفضة وكانت كل مباني القلعة من لبن شبيه باللبن المستعمل في مصر ووفق المقاييس المصرية .

ومن المعقول أن نستنتج - كما يرى « يونكر » - بأن هذا الحصن لم يكن قلعة بالمعنى الصحيح يسكنها محافظ يشرف بقواته على الإقليم المحيط به لأن الحدود المصرية كانت وقت بنائه تقع على بعد لا يقل عن ٢٥٠ كيلومتراً إلى الشمال ولا توجد أية قلعة في هذه المسافة وبعبارة أخرى فإن مثل هذا البناء المنعزل لا يمكن أن يؤدي وظيفة الحصن القوي أو أن يكون جزءاً من نظام الدفاع أو الحماية للمصالح المصرية في هذا الإقليم ، والأرجح أنه لم يكن سوى مركز تجارى فحسب - ولا تعطينا الآثار الباقية منه شيء المعلومات عن تخطيط المساكن في أعلاه أو في داخله وهكذا لا يفيدنا كثيراً عن التخطيط العمراني في مصر القديمة .

من كل ما سبق يمكن أن نستنتج أن المصرى القديم كان يهدف في تخطيطه العمراني إلى تحقيق أغراض عملية إذ كان لا يلجأ إلى إقامة مسكنه في الأراضي الزراعية التي يحرص على استغلالها في الزراعة إلا حينما تدعوه الضرورة لذلك - وفي بداية الأمر كان هذا المسكن بسيطاً ساذجاً لا يخرج عن كونه دروة بسيطة مستديرة أو بيضاوية ثم استقامت جدران هذا المسكن بعد أن عرف الإنسان اللبن واستخدمه في البناء - ومادام المسكن هو المأوى الدنيوى الزائل فلأبأس من أن يظل اللبن مادة بنائه الأساسية ولذا لم يجد المصرى ما يبرر الاستعاضة عنه بالحجر وربما كان اللبن أيضاً أنسب مواد البناء في البيئة المصرية التي يغلب فيها الجفاف واندفاء -

وإذا ما تجمعت عدة وحدات سكنية في بقعة ما فإنها كانت تحاط بسور وتشق فيها الطرقات بحيث يسهل الدفاع عنها واتصال أجزائها بعضها ببعض ولم يخرج المصري على هذه التقاليد حتى عند تخطيط مدينة كاملة دفعة واحدة إذ كان يعمل على اختيار البقعة الملائمة وحسن توزيع وحداتها المختلفة بحيث يسهل تصريف مختلف الشئون وتنسب له دقة الاشراف عليها .